سيمياء الدلالة عند "غريماس

ركيز "غريماس" في دراسته للسر على جوانب منها الفعل المحول إلى ملفوظ أي إلى فعل لساني يكون قد اقتفى "نهج "لويس يلمسليف" Louis Hjelmeslev و"دو سوسير" ونظر إلى اللغة والكلام بطريقة خاصة، وشق لنفسه طريقا خاصا جدا"؛ حيث انطلق في نظريته لبلوغ البنية الخصوصية للكلام Langage من خلال نظام خاص "فهو يطرح قضية المقدمات Les prolégomènes وكيفية العمل السيميائي الموجودة بين جهتي الفعل في كيفية دلالة العلامة؛ بين الدال والمدلول من منظور "دو سوسير"، وبين التعبير والمحتوى أو المعنى من منظور يلمسليف فالكلام أثر لغوي ناتج عن المكون أو الشكل وبالتالي يكون ذلك فعل استدعاء للمعنى .

واستنادا إلى ما سبق يطرح "غريماس" في أعماله قضية إنتاج المعنى، ويركز على الدلالة لا في جانبها المعجمي الذي يهتم بالتصنيف ودراسة المفردة، بل على "الدلالية التي تعد الصلة بين التعبير والمضمون، بين الاستعمال والدلالة، بين الوحدات المركبة أو الأولية المشكلة للغة والوحدات المركبة للمضمون، ومن هنا تماثل الدلالية السيميائية" التي يجب عليها أن تهتم بتمفصلات الخطاب باعتباره حقلا لمجموعة من العلامات، وتسعى إلى تفسيرها انطلاقا من الجزئيات الدالة فيه والمكونة لعلاماته العامة.

فالنظرية السيميائية عند "غريماس" لا تعتمد على الرمز اللغوي, إنما تقوم على البنية باعتبارها حيزا واسعا, ومجال علاقات منه تنبثق الدلالة وفيه "تنظيم البنى السيميائية . ومن بينها البنى السردية . التي تتمتع بوضع مستقل، ويشكل مكانا تنتظم فيه التحليلات الإضافية للمضمون، ونوعا من القواعد العامة والأساسية، في الوقت نفسه".

وهو بذلك يحاول أن يرصد مستوى مسار المعاني من جهة أخرى، وبناء نماذج شكلية تجسد تلك المعاني، ووضع قوانين تنظم مضامينها من جهة أخرى، وتتحكم في إنتاج الخطاب والقواعد المتحكمة فيها ومن بينها القواعد السردية.

وتتجسد تلك القوانين من خلال النموذج التصنيفي الذي هو عبارة عن " بنية مؤلف من أربعة أطراف معرفة من خلال علاقاتها مع بعضها البعض ومن خلال شبكة علاقات محددة قابلة للوصف باعتبارها ترابطا بين قطرين".

فمن خلال استخدام "غريماس" للفظ قطر حدد العلاقات بين الأطراف، وبالتالي العلاقة بين كل طرفين وتكون العلاقة بينهما علاقة تناقض. ولذلك يعتبره النواة الأولى للمورفولوجيا الأساسية بسبب ثبات العلاقات الموجودة بين أطرافه المكونة له، فالتناقض بين الأطراف في المستوى التصنيفي يستعمل لغرض بيان العلاقات بين الأقطار الثنائية من حيث كونه علاقة جامعة بين أطراف، وهو عملية وسيرورة؛ فهو من الناحية العملية يتمثل في نفي أحد طرفي القطر وتأكيد طرفه النقيض في الوقت نفسه، ومن ناحية السيرورة يؤدي ذلك إلى تغيير المضامين من خلال نفي القائم منها وإظهار مضامين مؤكدة محلها"

إن مبدأ التناقضات والتعارضات بين الوحدات الكبرى هو المكون الأساسي لوحدات البنية، وأن هنالك تعارضات ثنائية أخرى بين الوحدات الجزئية التي قد تدخل في تشكيل الوحدات الكبرى، ومن هنا توصل إلى وضع ما سماه بالمربع السيميائي. Le Carre Sémiotique

يعد المربع السيميائي "بمثابة مخطط تصوري للتمفصل المنطقي لنوع دلالي ما، مبينا للبنية الأولية كما هي معطاة كعلاقة بين موضوعين على الأقل لا تقوم إلا على ملاحظة التعارض الذي يربط بين الخصائص الاستبدالية للكلام، " ضمن عالم خطابي معين ذلك النوع الدلالي الذي هو بمثابة قلب الدلالة وهو المستوى الأكثر عمقا," إن البنية المقترحة لذلك هي: وجود موضوعين: س 1، س 2 واللذان يكونان نوعا دلاليا معطى مثل: حياة / موت، فهما في علاقة تعارض وبأكثر دقة في علاقة

تضاد الواحدة مع الأخرى عن طريق النفي، ويمكن أن نلاحظ نوعا من التضاد بين سَ1 و سَ2 ومن خلال تقابلها على المربع السيميائي فإنهما مرشحان لإنتاج ثنائيات ضدية"، ويمكن تجسيد ذلك بواسطة الترسيمة التالية:

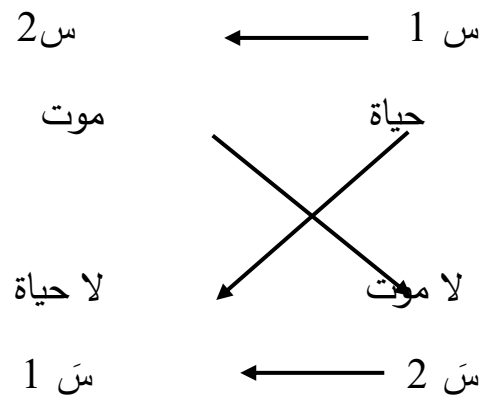

فالموضوع بالنسبة "لغريماس" ينبغي أن يوجد أولا، ليتم نفيه أو إثباته بعد ذلك، وهنا يؤكد على عملية النفي التي تقود إلى صياغة النوع الأول من المقابلة الثنائية؛

ويعني بها عملية التناقض؛ فحياة لا حياة, وكذا بالنسبة لموت لا موت, فليس بالإمكان طرح الوحدة المعنوية س1 دون تصور في آن واحد لنقيضها سَ1، ثم بعد ذلك يتم توحيد العناصر الجزئية, أو المعانم سَ1 مع س2, وبالتالي تتناوب عمليتا النفي والإثبات؛ فيتم بلوغ الضد س2 من خلال التنقل عبر النقيض سَ1, وبلوغ الضد س1 عبر النقيض سَ2, ويخلق ذلك علاقات اقتضائية؛ لا موت حياة وكذا بالنسبة لا حياة موت, بين سَ2 وس1، وسَ1 وس2، ويكن تمثيل ذلك على النحو التالي:

س 1 ← سَ1 ← س2 .

أو العكس: س 2 ← سَ2 ← س1 .

في حين يظل المحوران الدلاليان س 1 و س2 في علاقة تضاد, وعليه نصت المدرسة الفرنسية أن المربع السيميائي هو "تمثيل لإنتاج وإدراك الدلالة إذا اعتبرنا البنية كنموذج تكويني فإنها تسخر كقاعدة للمسار التوليدي الشامل".

ويمكن توضيح ذلك وكيفية عملية الاستبدال؛ كالربط بين كلمتين معروفتين جميل/ وقبيح وبوضعهما على المربع السيميائي؛ يمثل الخط العلوي في المربع مبدأ التعارض بينهما, والخط السفلي العلاقة الثانية التي تتبنى على نفيهما, وهما احتمالان منطقيان, ليس قبيحا وليس جميلا, وهذه الاحتمالات الموجودة ليست فقط مجرد أضداد أو تعارضات ثنائية؛ ذلك أن الشيء الذي لا يكون جميلا ليس بالضرورة يكون قبيحا، والعكس فإن الشيء الذي لا يكون قبيحا ليس بالضرورة يكون جميلا, وعندما تنزل الدلالات ضمن هذا المجال التصوري؛ فإنها تكتسب الكثير من المعاني من خلال هذا الفعل.

ومن خلال وضع "غريماس" للمربع السيميائي، يكون قد حاول إيجاد نموذج يتم بواسطته التمييز بين تصورات المجتمعات للأشياء، ويسمح بالتمييز بين المميزات الثقافية للشعوب، بين ما هو مثلا حلال عند شعوب، وما هو حرام عند أخرى. أو حضارة الخمر في فرنسا، وحضارة ينابيع الماء في تركيا، والاختلافات النصية التي يتمظهر من خلالها كل ذلك؛ وهذا يعني إعادة تأويل البنية الدلالية المنطقية إلى مجموعة من التصورات من خلال إعادة تحيين المشخص المحسوس إلى مجرد ذهني وثقافي وإيديولوجي .